الصورة فى الكتاب المصور

الصورة في الكتاب المصور

إعداد أ.د / كمال الدين حسين

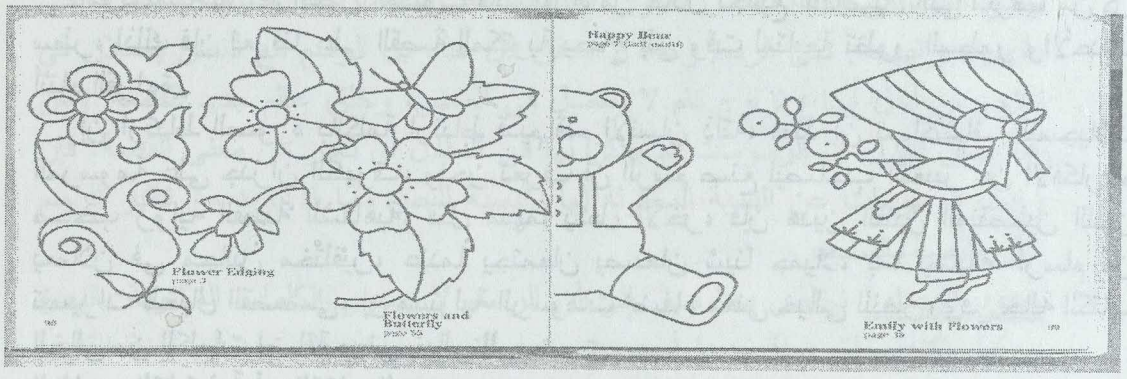

ما هو الكتاب المصور؟

مقدمة

تعتبر الكتب المصورة واحداً من أهم الوسائط الثقافية (أدبية أو غير أدبية) التى يمكن التعامل بها مع صغار الأطفال، فمنذ الميلاد وحتى سن السابعة، هناك كتابٌ مصور للطفل، متنوع فى شكله ومضمونه بما يتناسب مع المرحلة العمرية التى يقدم إليها، وإن كان الأمر لا يمنع من وجود كتب مصورة لمن هم أكبر سناً من الأطفال.

ويعنى مصطلح الكتاب المصور "أى إنتاج مطبوع يقدم للطفل منذ لحظة الميلاد، ويعتمد على الصور والرسومات، والتى تلعب به دوراً ملموساً، وقد تأتى الصورة أو الرسم على الغلاف، أو داخل متن الكتاب، كما تستخدم الصور الفوتوغرافية أحيانا"، وإن كانت الكتب المصورة الحديثة الآن تعتمد على الرسومات بشكل واضح، وتتوفر بأحجام وأشكال مختلفة، تتنوع فى الأساليب الفنية التى يلجأ إليها الرسام فى تجسيد أفكاره عن مضمون الكتاب، فقد يلجأ إلى المذهب التجسيدى، أو التعبيرى، أو الانطباعى، أو السيريالى، أو التكعيبى، أو التنقيطى، أو أسلوب الكولاج.. كل هذا من أجل إيضاح وتعميق الفكرة الأساسية لمحتوى الكتاب، سواء أكان أدبياً أم غير أدبى.

ويستخدم الرسام فى تحقيق هدفه اللغة الرمزية لخلق التواصل بين الكتاب والمتلقى، فهو يعتمد فى لغته وصياغة رموزه البصرية على كل من الشكل والمضمون ليبدع رموزه، والإيهام بالواقع من وجهة نظره، (كما جاء بالمضمون) والذى قد يكون مخالفاً للواقع الذى نعيشه، كما يستخدم العديد من الوسائط الاستعارية لإثراء الرؤى الخيالية التى يسعى للتعبير عنها.

وكلما كان التصوير أو الرسم ناجحاً، كلما أخذ الأطفال بعيداً عن عالمهم إلى عالم جميل ملىء بالرموز والدلالات، يساعدهم على مزيد من الفهم لحياتهم وعالمهم من خلال العالم الخيالى الأكثر قيماً وجمالاً وسعادة ومرحاً، عبر ربط الرسم بالكلمة الموجودة فى النص، أو بربط الرسم بالقصة ككل حيث لا توجد كلمات.

كيف نقرأ الكتاب المصور

تتم قراءة الكتاب المصور بطريقتين : الأولى قراءة الصور، والثانية قراءة النص المطبوع والكلمات، وعند قراءة الصورة فإننا نقرأ الصورة كوحدة متكاملة دفعة واحدة أول الأمر، ثم نبدأ بعد استيعابها فى قراءة التفاصيل والعناصر المتداخلة فى تكوينها، لنعرف كيف تكون هذا الكل، بمعنى أن قراءة الصورة تتم بالرؤيا الكاملة والاستيعاب، ثم المعايشة، وبعدها نحاول تفسير التفاصيل والعناصر، الألوان، الأشكال.. إلخ، حتى يتم إدراك كل مكونات الصورة مرة ثانية.

أما بالنسبة لقراءة النص المكتوب فإننا نقرأه من خلال تجميع التفاصيل التى نعرفها من كل سطر، لذلك فإن تعرفنا على القصة المكتوبة يحتاج إلى وقت لمتابعة تطور السطور والأحداث أثناء القراءة..

إن ارتباط الصورة بالكلمة ارتباط قديم قدم الإنسان ذاته، فمنذ أن تم اكتشاف التسجيلات المرسومة على جدران الكهوف، ونحن نعرف أن الرسم صنع ليصاحب التعبير عن الأفكار ثم صاحب رواية القصة الشفاهية، فكل منهما يكمل الآخر، فإن هذين الفنين المنفصلين اللذين يعملان فى مجالين مختلفين، عندما يجتمعان يصنعان شيئاً جميلاً، بما يضيفه الرسام من تفسيرات للخيال القصصى، إن مسئولية الرسومات إضفاء معنى خيالى للنص، وفى حالة الكتاب الخالى من الكلمات إضافة معنى خيالى للموضوع.

العناصر التشكيلية فى الكتاب المصور

١) **تصميم الكتاب** يخضع تصميم الرسومات فى الكتاب لعدة عوامل، منها : الموضوع، والمرحلة العمرية المقدم لها، وإمكانات الناشر، ونوع الرسومات ومساحتها، وهل هناك عناوين، ونوع الغلاف، وهل هناك زخرفة لبعض الصفحات أو هل هناك برواز للصفحات. كل هذه الاعتبارات وغيرها هى التى تحدد العلاقة بين الصورة والكلمة، وخلق الطابع المناسب. أما الرسام فإنه فى تصميمه قد يحاول أن يصيغ فى الرسم المرئى ما تقوله الكلمات، أو قد يفسر بالرسم ما يراه هو أو يفترضه، والرسام الناجح هو الذى يضيف إلى النص، يبدع، ويعقب، ويظهر الآخرين كما يراهم من وجهة نظرنا، وعادة ما يستخدم الرسام المبالغة كما فى رسم الكاريكاتير.

٢) **تصوير اللغة الاستعارية "المجازية"** اللغة المجازية هى من أهم الأساليب الأدبية التى توحى بالمعانى وتثرى الخيال، لذلك لا يكون مستغرباً أن يحاول الرسام أن يستكمل النص وأن يضفى إليه الحياة من خلال رسمه لهذه اللغة، واستخدام الاستعارة كلغة فنية فى التصوير، ومن أكثر الأمثلة شيوعاً هو تجسيد أو تصوير الحيوانات على هيئة أشخاص من البشر مستعيراً ملامح وعناصر بشرية لهذه الحيوانات، كالأرنب الذى يرتدى حلة ورباط عنق، أو الأسد الذى يدخن السيجار.. مثلاً. وكلما كان تصوير المجاز بأسلوب غير مباشر كان جيداً، لأنه فى بعض الأحيان قد يحاول الرسام أن يصور الاستعارة حرفياً، ففى إحدى القصص التى تحكى عن طفل كسول يصل إليه القمر ليوقظه، نجد الرسام قد صور القمر وهو ينزل من السماء ويدخل من النافذة إلى حجرة نوم الطفل ويلامس وجهه، ومثل هذا التصوير الحرفى قد يغير الإحساس والانطباع النفسى عن الاستعارة.

١) **تعميق معانى النص** واحدة من مهام الرسام تعميق المعنى العام للنص وتوسيع مضامينه ودلالته، بحيث يجعله يجول بعيداً عن المعنى الحرفى للكلمات، ويأخذ خيال القارئ بعيداً، لذلك لابد أن يكون الرسم أو الصورة المرئية عاملاً على تقوية وتدعيم النص، ولا نقصد من ذلك أن يطلب من الرسام تفاصيل لا وجود لها، ولكن يستخدم أدواته وملكاته الإبداعية بالأسلوب الذى يمكنه من تجسيد الجو العام، فعند تصوير معنى الموسيقى الهادئة تنشر الألوان المبهجة عبر صفحتين من الكتاب مثلا، لتوحى بالهدوء والبهجة. لكن الرسم وحده لا يحقق كل هذا، بل الرسم مع النص يعملان فى تلاحم من أجل إبداع تزاوج تام لا ينفصل فى المعنى، وخلق عالم جديد للقصة. ومن هنا يمكن القول إن الرسومات قد يمكن لها فى المقابل أن تغير من معنى القصة، فإن زادت الرسومات عن النسبة المعقولة لها بالنسبة للنص مما قد يزيد من تأثير الرسم على القصة بالسلب،

٢) **جهود الرسام** نخلص مما سبق إلى أن الرسام لا يصور الكلمات المكتوبة بالنص حرفياً، لكنه يخلق بعداً جديداً أبعد من حدود النص ويمكن للصورة أن تأخذ القارئ إليها، إن كلاً من الصورة والكلمة فى الحقيقة تحكى قصة فى نفس الوقت، فعندما تسكت الكلمات تتحدث الصورة، وعندما تسكت الصورة تتحدث الكلمات، فالصورة تضيف وتنشط المعنى، فهى ليست شيئاً يلصق إلى الصفحة بجانب الكلمة، إنها اللمسة الرائعة، إنها الحيوية والإنعاش للنص، وتأخذ قوتها من الألوان، السمات الدرامية، الإيقاع وكل عناصر الصورة، وهذا ما يفعله الرسام : يفسر النص، تماما كالموزع الموسيقى – عندما يفسر المقطوعة الموسيقية.

٣) **الطابع العام "النغمة" Tone** يختلف الطابع أو النغمة العامة للكتاب المصور عن أى كتاب من نوع آخر، ومثل الشخصية ووجهة النظر، فإن الطابع العام هو نتاج لتضافر جهد المؤلف والرسام. وإن كان المرح من أهم الإمكانات التى تساعد على تطور إدراكنا للحياة، صعوداً وهبوطاً، وتحفظ عقلنا بسلامته، ولذلك يكون ضروريا لصغار الأطفال أن يتميز الكتاب المصور بروح المرح، ويشكل الحالة التى يحاول إشباعها كل من المؤلف أو الرسام لدى الأطفال. نخلص من هذا أن الرسم فى الكتاب المصور لابد وأن يوحى للقارئ بالمزيد من المعلومات عن المناخ العام والشخصيات والإطار، وذلك من خلال التركيز فى الرسم على تلك العناصر الدالة فى النص، والتى يجسدها فى الصورة المرئية، والتى تأخذ القارئ إلى ما وراء خياله. معنى هذا أنه لو تم رسم قصة واحدة بواسطة عدد من الفنانين، فسوف نحصل على عدد من القصص المختلفة، وكل اختلاف فيها يرجع إلى رؤية الفنان، والفكرة، الخلفية والمقدمة التى اختارها للصورة : اختيار الألوان، والإيقاع، وحركة الخطوط، والتفاصيل، وضربات الفرشاة أو القلم.

ملاحظات حول بعض الكتب المصورة

أولا - النماذج السلبية

قد يكون من الإجحاف أن نوسم جهد مبدع بالسلبية، لكن عندما يخضع الإبداع لقواعد واضحة، أو يتماس مع معايير اتفقت الأغلبية على ضرورة وجودها، أو عندما لا يلتزم المبدع بأصول وقواعد الإبداع الفنية، فبماذا يمكن أن نوسم إبداعاته إذاً؟

أعتقد أن السلبية هنا لفظة أخف وطأة من غيرها، ومما يمكن أن يسمح به فى مجال النقد، بعيداً عن استخدام مصطلحات أخلاقية تفرق ما بين الضار والمفيد.

١) **مجموعة "حكايات مصر ٢٠٠٠"** وتصدر عن شخص يدعى محمد نبيل الجرادينى بالإسكندرية، وسأختار منها حكايتين : "الكتكوت السحرى"، و"حيلة الزمار". من الرسم واختيار شخصيات الحيوانات ندرك أن الكاتب يوجه المجموعة إلى طفل الرياض، وبنظرة عامة نجد أن المجموعة تلتزم بعدد الصفحات (١٦ ص)، والورق جائر خفيف، والرسوم غير واضحة والطباعة غير سليمة، وهناك تداخل للخطوط والألوان، هذا بالنسبة للشكل. أما المحتوى فحكاية الكتكوت السحرى بها أخطاء معرفية، على سبيل المثال، هل الأسد يجر العربات؟ وهل الزواج وبناء بيت للزوجة من القضايا التى تهم أبناء هذه المرحلة؟ وفى حكاية حيلة المزمار، وهى مقتبسة من الأدب العالمى، وتحكى عن قرية ورجل زمار وعمدة، فجاء الرسم بالرجل كلباً والعمدة فيلاً وأهل القرية من القرود، فهل يستقيم هذا؟ ولنقارن هذا بقصة أخرى تعالج نفس الموضوع العالمى، وهى قصة "العزف الشافى" : لعبد التواب يوسف، ورسوم صلاح بيصار، الرسم يرتبط بزمن الحدث والصورة معبرة، وتضيف إلى المعنى، فعندما تقول القصة إن الناس من كل الأحياء يحملون إليه الهدايا، لا ينسى الرسام أن يضع فى الصورة النساء بجانب الرجال، وهذه إضافة تساعد على تأكيد دور المرأة.

١) **المجموعة الثانية هى مكتبة الطفل** وتصدر عن مكتبة غزال بالإسكندرية والقصة النموذج هنا "أنا هنادى أعرف واجباتى" الغلاف لا يدل على شىء وهو مونتاج بين صورة فوتوغرافية لطفلة ورسم بشكل يفتقد إلى أبسط القواعد الفنية ناهيك عن الحس الجمالى، لرداءة الورق والطباعة، أما المحتوى فيطلب من طفلة الروضة كما يفهم من القصة، أو السنوات الأولى من التعليم الأساسى، أن تنظم وقتها، فى ترتيب الفرش، و قراءة الجرائد، والمساعدة فى المطبخ، وبعد العصر الذهاب إلى النادى، ثم القراءة فى مكتبة المنزل، ومشاهدة التليفزيون فى وقت محدد. هل هذا ما نريده لأطفالنا؟

٢) **مجموعة ليالى الأطفال** وتصدر عن المؤسسة العربية الحديثة، وإن كان الغلاف والورق أفضل قليلاً من المجموعتين السابقتين، إلا أن المجموعة تفتقد إلى الارتباط بالواقع فيما تقدمه من إضافات، فالأرنب مرمر، هل يعيش بمفرده فى القرية؟ البيت وحيد وسط الحقول، لا توجد شخصيات تعمل أو تكون بالقرب منه، واختيار الشخصيات غير مبنى على أساس علمى أو ثقافى، فهل الذئب مثلا يحب عصير الطماطم؟ ثم شخصية الأرنب متناقضة، فى البداية واجه الذئب بشجاعة رافعاً الفأس فى وجهه، ثم فجأة يوافق على إعطائه العصير، وفى النهاية يضع له الفلفل الحامى مكان العصير، فأين كانت شجاعته لحل الصراع؟ وهل إيذاء الآخرين هو الحل المناسب لمقاومة الشر؟ من نفس المجموعة، "قصة قطعة سكر"، والتى يشير المؤلف بها إلى خطر الإسراف فى السكر على صحة الأسنان، اعتمد فيها المؤلف على تكرار بعض الكلمات، والتكرار تقنية تستخدم لتثبيت بعض الكلمات الغريبة عن الطفل، ليثرى بها قاموسه اللغوى بعد التعرف عليها، لكن هل كلمة السكر من الكلمات الغريبة عن الطفل لتتكرر أكثر من ثلاثين مرة فى القصة؟ أيضا كلمة فرفور وتكرارها فى أوضاع مختلفة مشكلة فى بناء الجمل، ولا يوجد فى القصة ما يشير إلى استخدامها كوسيلة لتعليم الطفل مواضع الأسماء فى الجملة؟ قد يرجع ذلك إلى وجود شخص ثالث فى القصة غير المؤلف والرسام، هو من يقوم بإعادة الصياغة اللغوية، ولم أستطع أن أعرف لماذا؟ من المفترض أن يكون هناك مصحح للأخطاء الإملائية أو النحوية، أما إعادة الصياغة فهذا جديد، وقد يكون وجوده السبب فى وجود تشبيهات غريبة فى بعض قصص المجموعة مثل ذكره فى قصة ضفدع والقطة بوسى "الماء يجرى فى الجدول ويضحك" والجدول يقصد به الترعة، وهى كلمة عربية، أما أن يضحك فكيف؟؟

٣) **مجموعة الطفل العربى** وتصدر عن مكتبة غزة بالفجالة. نفس مشكلة الورق ولكن يضاف إليها هنا غرابة الرسم، ففى حكاية "الصياد الطماع" نجد الرسم يحدد شخصية الصياد من صيادى القرون الوسطى فى أوروبا، أشبه بروبين هود مثلاً والبيئة غير مألوفة للطفل.

هذه بعض النماذج التى تؤدى إلى إفقار الإحساس الجمالى وعدم الاستمتاع بكتاب الأطفال، وتخلق مناخا من عدم الاستقرار والأمان الثقافى الذى يدفع الطفل والوالدين للبحث

ثانيا - النماذج الإيجابية

وهى المجموعات التى تحاول أن تتوافق مع المعايير العالمية لكتاب الطفل، خاصة الكتب التى توجه إلى طفل ما قبل المدرسة أو طفل الروضة، وتتفق جميعها فى استخدام الورق الكوشية المصقول، استخدام البنط المناسب لقدرة الطفل على التعرف على الحروف والكلمات، وتنوع القطع ليتناسب مع استخدام الطفل أو استخدام من سيقرأ القصة على الطفل، أما الرسم فهو واضح متنوع فى الأساليب، ليضفى مسحة من الجمال على الرسم وينمى إلى حد ما التذوق الجمالى، إن كان ذلك فى بعض الأحيان على حساب النص أو على حساب ما يمكن أن يضيفه الرسم إلى القصة كنص مواز يضيف ما قد تغفله الكلمات، وتتنوع هذه الكتب أيضاً ما بين الكتب الأدبية المصورة التى تضم القصص أو المعلومات العلمية فى قالب أدبى، والكتب العلمية التى تقدم موضوعات علمية تهم الطفل، وتستخدم الرسم كوسيلة للإيضاح.